القيم الخلقية عند شعراء مملكة غرناطة (٦٣٥-٨٩٧هـ) دراسة تحليلية

(العفة والعدل أنموذجاً)

إسراء فضل فرحان حبيب

أ.د. محمد حسين المهداوي

جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص

نقل الشعر الأندلسي صور الحياة ،وأحوال الناس ، واخلاقهم وعاداتهم ، ومن القيم الخلقية التي سعى هذا البحث لرصدها هي (العفة والعدل) فالعفة من القيم الخلقية العليا التي تطرق لها شعراء تلك الحقبة والتي تتمثل بصون الأعراض وعدم التجاوز على ممتلكات الأخرين وغيرها من القيم الأخرى ، وكذلك الأمر بالنسبة لخلق العدل ، فالعدل من الفطرة الإنسانية التي تميل إليها النفس بالبداهة ،وقد تعرض شعراء هذه الحقبة لهذا الخلق المحمود مبينين عبره عدل حكامهم، وأشادوا بذكر دورهم في نصرة المظلوم وإغاثة المستغيث.

Abstract

Andalusian poetry conveyed images of life, people's conditions, morals and customs, and one of the moral values that this research sought to monitor is (chastity and justice). The same applies to the creation of justice, and justice is one of the human instincts that the soul tends to intuitively, and the poets of this era were exposed to this praised creation, showing through it the justice of their rulers, and praised their role in supporting the oppressed and helping the distressed.

مقدمة

الحمد لله على ما أنعم ، وله الشكر على ما ألهم ،و الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحُصي نعماءهُ العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون ، الذي ليس لصفته حدٌّ محدود، ولا نعتُ موجود، ولا وقت معدودُ ولا أجلُ ممدود، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وبعد .

ارتبط الشعر بالأخلاق ارتباطاً وثيقاً؛ لأنَّ الشعر والأخلاق ينتميان الى العالم الإنساني الداخلي، فالأخلاق تتحرك باتجاهها الروح بكونها قيمة يحتضنها الأنسان في داخله، ويمثل الشعر حركة للروح في وقت الأبداع، والأخلاق تبرز للوجود الخارجي للإنسان عبر محورين او عملين أحدهما سلوكي والآخر فني وما من عمل فني مهما كان نوعه الاّ يرجع الى حقيقة أخلاقية في الإنسان.

إذ تعنى القيم الخلقية ببيان ما يتعلق بسجايا النَّفس وطبائعها، والسُّلوك هو المظهر العملي، والأثر الفعلي لتلك القيم، فالقيم الخُلقية ي صفات سلوكية تفتضيها الفطرة والشرع والعقل؛ لا لها من آثار خيرة. "فالعلاقة بين الشاعر والمجتمع علاقة وثيقة، بوصفها علاقة فرد بجماعته التي ينتمي إليها، والعلاقة بين الشعر والمجتمع هي ايضاً علاقة وثيقة بوصف الشعر مظهراً من مظاهر المجتمع.

ولـيس المقصـود بشـعر القـيم الخلقيـة غرضـاً شـعرياً معينـاً ، بـل هـو كـل مـا نظمـه شـعراء مملكـة غرناطـة فـي عصـر بنـي الأحمـر مـن شـعر اتصـل اتصـالاً وثيقـاً بـالقيم الخلقيـة التـي كـانوا يتحلـون بهـا والتي ارتبطت بالمجتمع الذي عاشوا فيه.

وهـي تمثَّـل المثـل العليـا فـي الحضـارات والمجتمعـات علـى اخـتلاف معتقداتها وثقافتهـا علـى امتـداد التـاريخ الإنسـاني وبغـض النظـر عـن الاخـتلاف فـي مصـدر هـذه القـيم الخلقيـة والمثـل فـي كـل حضـارة ومجتمع بشري.

إذ يمثَّـل شـعر القـيم الخلقيـة وثيقـة تاريخيـة ومصـدراً مهمـاً يخبـر عـن مـدى مـا كـان يتحلـى بـه المجتمـع الأندلسـي مـن قـيم خلقيـة بشـكل عـام ، والمجتمـع الغرنـاطي بشـكل خـاص ، فهـو مـرآة صـادقة ووثيقـة أمينـة في نقل ما شاهده الشاعر ورآه أمامهُ من وقائع واحداث.

التمهيد

لا شـك فـي أن القـيم الخلقيـة صَـحبتْ الإنسـان مَنـذ بـدء تحضـره، فهـي رابـطُ سـلوكه الاجتمـاعي وناظمـه، والقـيم الخلقيـة فـي الإسـلام تتعلـق بتكـوين السـلُوك الخلقـي الفاضـل عنـد المسـلم ليصـبح سـجيَّة وطبعـاً يتخلـق بـه مـع ربّـه، ثُـم مـع نفسـه، ويتعامـل بـه مـع الآخـرين لتكـوين مجتمـع إسـلامي فاضـل تسـوده قـيم الإسـلام الخلقيـة مـن الرحمـة، والوئـام والبـرّ والأمانـة، والصَّـدق والأخـوة والتعـاون، والوفـاء، والصبر، والشكر، والحياء، والنصُّح والرحمة[١].

وتمثـل القـيم الخلقيـة " مجموعـة مـن المبـادئ والقواعـد العامـة التـي توجـه السـلوك البشـري داخـل المجتمـع نحـو تحقيـق مـا يُعتقـد أنـه الخيـر ، وتجنـبُ مـا ينظـر إليـه علـى أنـه يُجسدُ الشـر، ... وتسـتهدف القـيم الأخلاقيـة فـي محصـلتها النهائيـة تحسـين العلاقـات بـين البشـر ، وإعطـاء الحيـاة البشـرية معنـى يُسـاعد علـى الحفـاظ علـى قـدر مـن التماسـك الاجتمـاعي، علـى الـرغم مـن وجـود الفـوارق والتناقضـات ، داخـل المجتمعـات البشـرية وبينهـا" [٢]، أو هـي " مجموعـة مـن المبـادئ تعمـل علـى احتـرام الإنسـان لنفسـه، وللآخـرين كقيمـة يتميـز بهـا الانسـان، وتكـون الـوازع النفسـي الـذي يمنعـه مـن الانحـراف عـن الصـلاح، وذلـك لصـياغة سـلوكه وتصـرفاته فـي اطـار محـدد يتفـق وينسـجم مـع المبـادئ والقواعـد التـي يـؤمن بهـا بقية أفراد المجتمع"[٣].

والنظـام الإسـلامي علـى وجـه العمـوم مبنـيّ علـى مبادئـه الخلقيـة فـي الأسـاس، وإنّ الأخـلاق هـي جـوهر الرسـالات السـماوية علـى الإطـلاق إذ تمثـل محـور مقاصـد التشـريع الإسـلامي وتـدور جميـع أحكامه في فلك هذه القيم والمقاصد[٤].

فالرسول (صلّى الله عليه واله وسلم) قال:" **أنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**"[٥].

فـالغرض مـن بعثـهِ (صـلّى الله عليـه والـه وسـلم) هـو إتمـام الأخـلاق والعمـل علـى تقويمهـا، وإشـاعة مكارمهـا، وكـذلك الهـدف مـن كـل الرسـالات هـدف أخلاقـي، والـدين نفسـه هـو حسـن الخلـق. فكـان (صـلّى الله عليـه وآلـه وسـلم) أحسـن النـاس خُلقـاً وامتدحـه بـذلك ربّ العّـزة قـائلاً:{ **وَإِنَّـكَ لَعَلـى خُلُـقٍ عَظِـيمٍ**}[٦]. وقولـه تعـالى:{ **لَّقَـد كَـانَ لَكُـم فِـي رَسُـولِ اللهِ أُسـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِّمَـنْ كَـانَ يَرجُـوا اللهَ وَالْيَـومَ الأَخِـرَ وَذَكَـرَ اللهَ كَثِيراً**}[٧].

وكـان الشـاعر العربـي كثيـر الإشـادة بمفـاخره ومفـاخر العـرب ومـا عرفـوا بـه مـن كـرم وشـجاعة وعـدل، وعفـه، ،وعنـدما جـاء الإسـلام ألقـى بـأنواره علـى جميـع العصـور فقـد تعـرض الأدب الاندلسـي عامـة والشـعر خاصـة لهـذه الأنـوار فحـافظ علـى صـلته الوثيقـة بـالأخلاق التـي تغلغلـت فـي معظـم أغـراض الشـعر حتـى فـي أسـوأ عصـور الانحـلال السياسـي والتفكـك الاجتمـاعي[٨]، وإذا كـان الشـعر يمثـل قيمـة كبـرى لـدى المجتمعـات، ومنهـا المجتمـع الأندلسـي، فـإنّ قيمـة هـذا الشـعر تكمـن فـي مجموعـة القـيم الخلقيـة بأنواعهـا التـي عبّـر عنهـا الشـاعر فـي مضـامين قصـائده، فـالمجتمع فـي العصـر الأندلسـي مثـل غيـره مـن

المجتمعات؛ ضّم عدداً من الشعراء سعوا بأقوالهم وأفعالهم الى غرس مجموعة من القيم الإنسانية العليا المتنوعة في نفوس المجتمع، طامحين في ذلك الى تغيير المجتمع نحو المستوى الأفضل الذي ينشدونه.

من أبرز تلك القيم التي سعوا الى غرسها في النفوس هي:(العفة والعدل).

المبحث الأول

العفة

العفة تعني كف النفس عن المحارم، وعن اقتراف الشهوة المحرمة، وأكل المال المحرم، وعن ممارسة ما لا يليق بالإنسان أن يفعله مما لا يتناسب مع مكانته الاجتماعية[٩]،والعفة من أساسيات كمال الإيمان، ومن متممات مبادئ الأخلاق ، لذا نجد القران الكريم قد تناولها في قوله تعالى: {**ومن كان غنيا فليستعفف**}[١٠]، وفي الحديث النبوي الشريف قال الرسول محمد (صل الله عليه واله وسلم):" **بَرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ وَعِفُّوا عَنْ نِسَاءِ النَّاسِ تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ** [١١]. وقوله ايضاً (صلى الله عليه وآله وسلم):" **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى والتُّقَى والعَفَافَ والغِنى**"[١٢].

وقد عَرفَّها الجاحظ بقوله:" هي ضبط النفس عن الشهوات، وقسرها على الاكتفاء، بما يقيم أود الجسد، ويحفظ صحته فقط، واجتناب السرف والتقصير في جميع اللذات، وقصد الاعتدال، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها وعلى القدر الذي لا يحتاج الى أكثر منه، ولا يحرس النفس والقوة أقل منه، وهذه الحال هي غاية العفة "[١٣]. وعّرفها الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ)، بقوله: هي " ضبط النفس عن الشهوات وقصرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد، ويحفظ صحته فقط، واجتناب السرف في جميع الملذات وقصد الاعتدال"[١٤]،" والعفة من العفاف و من المروءة ومن كمال خلق الإنسان قيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العفة والحرفة، عندما يتحلى المرء، وتأتي له الدنيا طائعة، يتركها رغبة في مثوبة الله، لأن اكتمال المروءة من شيم الأحرار، ونزاهة الفعل من خصال الأكرمين، ويقول ابن خفاجة:

وزَكَا فُشدَّ على العفافِ إزارهُ

إنَّ العَفافَ لشيمةُ الأحرار"[١٥].

وهي من الفضائل الاجتماعية السامية، التي يتحلى بها كل ذي همة رفيعة ونفس عالية، والعفيف هو الذي يكبح شهوات نفسه ويرضى بالقليل الطيب ليعيش عفيفاً. فيصبح رمزاً للنبل والطهر.

وقد تعرض الشعراء في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر الى قيمة العفة، وعملوا على ترسيخها في النفوس، فمن ذلك قول ابن هذيل الغرناطي (ت:٧٥٣هـ)، بيتين عبر فيهما عن عفافة إذ قال:

(بحر الوافر)

أتمنع أن أقبل منك كفاً

وقد حرَّمت ثغركَ بالعفافِ

وها أنا طائفٌ بك كلَّ حينٍ

فحيّنْ لي المقبَّل بالطوافِ[١٦].

في هذين البيتين يتصدر التساؤل (اتمنع في البيت الأول)، إذ مزج الشاعر بين العفاف، والمعنى الغزلي(تقبيل الثغر) وقد جرى هذا المزج اللطيف عبر صياغة لغوية أحسن الشاعر صوغها، وشيء أخر ان الأجواء المثارة لهذا الصراع بين العفاف والحسية هي في الطواف ما يؤكد شدة الحدث وعنفوانه ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان لعفته الصارمة سلطاناً على كبح جماح الشوق الصارم والعفة المتوثبة.

وكثيراً ما يجمع الشعراء بين الفخر والعفة، وابن جزيّ الكلبي (ت:٧٥٧هـ)، أحد الشعراء الذين كانوا يحرصون على المحافظة على العرض إذ قال:

(بحر الوافر)

وكم من صفحةٍ كالشمس تبدو

فيُسْلي حسنُها قلبَ الحزين

غضضتُ الطرْفَ من نظري إليها

محافظةٍ على عرضي ودينـي (١٧).

تمثل هذه الابيات قمة العفة فالشاعر يهون عليه كلُّ شيء إلاّ دينه وعرضه، وهنا تعبير عن العفة، وعن (غضّ الطرف) وهذا مبدأ إسلامي إذ أمرنا به الله سبحانه وتعالى في آيات محكمات. إذ قال تعالى: {**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**}(١٨). كما أمر الله المؤمنين بغض ابصارهم وحفظ فروجهم وان الله مشاهد لأعمالهم مطلع عليها إذ قال: { **يعلم خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تخفي الصُّدُور**}(١٩).

وكذلك الأمر بغض البصر للمؤمنات كما جاء في قوله تعالى: {**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**} (٢٠). فابن جزي يفخر بعفته، وعدم النظر الى عورات الناس، فهو يغض الطرف إذا ما بدت المحرمات من النساء حفاظا على عرضه ودينه. ففي هذه الابيات يتسع خلق العفة، وان الاقتداء بهذا الخلق يرفع من القيم الأخلاقية للمجتمع بما يكفل للمجتمع حياة هانئة وآخرة سعيدة، ومن العفة قول أبي حيان الغرناطي (ت: ٧٦٤هـ)(٢١).

(بحر الطويل)

تجنَّبتُ ما يختار منه ذوو الخنا

قبيح فالٍ يُوجِبُ المَقتَ والزّلَلْ

فلم أرَ مثلي عاشقاً ذا صبابةٍ

تمَكّن مما يشتهيه وما فعلْ (٢٢).

يفخر الشاعر في هذه الابيات بعفته، فهو عاشق تمكن من محبوبته وما فعل وهذا دليل على مدى القيم الخلقية التي يكمنها الشاعر في خلجات نفسه وهي مثال للخلق الرفيع العفيف الذي يتحلى به.

وقال ابن زمرك مقطوعة عبر فيها عن عفافة، إذ رأى ان الحب يجب أن يمثل علاقة سامية، يرخص من أجلها كل غال، وما يدل على عفافة أنه قادر على وصال المحبوبة، ولكن عفافة يجعله يترفع عن ذلك إذ قال:

(بحر الطويل)

ألا في سبيلِ اللهِ نفس نفيسة

يرخَّصُ منها الحبُّ ما كان غاليا

خلوتُ بمن أهواهُ من غير رقبةٍ

ولكنَّ عفافي لم أكن عنه خاليا (٢٣).

في هذين البيتين تتضح القيمة الخلقية التي تتمثل في الضبط الغريزي لدى الشاعر، إذ خلا بمحبوبته وليس ثمة رقيب فما عساهُ أن يقوله أو يفعله، ولكنَّ ثمة مانعاً حل بينه وبين الاستسلام للإغراء ،وقد تمثل هذا المانع في العفة، فعبَّر عن هذا الموقف أسمى تعبير، فهو قد خلا بمن يهوى، ولكن قابله تعبيره الرائع (ولكن عفافي لم أكن عنه خاليا)، فشتان بين الخلوتين (الخلوة من الرقباء والوشاة) و(الخلوة من العفاف)، فهو خالٍ من الرقباء لكنه ليس خالياً من ضبط النفس والعفة والورع ، فالنفس كما عبر عنها (نفيسة) في إشارة واضحة الى الإباء والقناعة والاطمئنان ، وقد روَّضت على الصبر وبعد النظر، لذا فمن الطبيعي ان يفتخر الشاعر بهذه القيمة الخُلُقية أسوةً بغيره من الشعراء الذين افتخروا أو مدحوا بالعفة وما يتصل بها. وهذه الابيات تعد مثالاً لخلق العفة يجب الاقتداء بها، وبهذا تكتمل منظومة الاخلاق لدى الشاعر.

ونلمح هذا المعنى في مقطوعة أخرى تحمل الملمح نفسه عبر فيها عن عفافة فهو يتمكن من وصل الحبيب الا انه عفافة يمنعه إذ قال:

(بحر المتقارب)

لَقَدْ عَلِمَ اللهُ أنَّي امْرُؤٌ

أجرّرُ ثَوْبَ الْعَفَافِ القَشِيبْ

فَكَمْ غَمَّضَ الدَّهرُ أجْفَانَهُ

وَفَازَتْ قِدَاحي بوصْلِ الحَبيبْ

وَقيلَ رَقيبُكَ في غَفْلةٍ

فَقُلْتُ أخَافُ الإلهُ الرّقيبْ(٢٤).

فلشاعر على الرغم من تهيئة كل الظروف امامه من وجود الحبيبة وتمكينها له من نفسها وغياب الرقيب، الا انه لم يفعل شيئًا محرماً وبقي محافظاً على عفافة فهو يخاف الله، وهذا دليل على مدى تأثير هذه القيمة الخلقية التي يكمنها الشاعر في داخله وهذا مما يعمق الإحساس بهذه القيمة التي تحفظ العرض.

ومن نماذج العفة قول الشاعر عبد الكريم القيسي(ت:٨٩٠هـ) (٢٥) قصيدة عبر فيها عن التزامه وعفافة إذ قال:

(بحر الطويل)

وأعجَبُ عُبّادِ الصّليبِ صبيَّةً

سَبَتْني بوجهٍ مْثلَ بدرٍ مُتمّمِ

فبتُّ حليفَ الهمِّ من فرطِ حبِّها

وباتَتْ بهجْري في فراشٍ تنعُّمِ

وكَمْ نَعَّمَتْني من لذيذِ وصالِها

بما لمْ تَصِلْ نفسي له بتوَهُّمِ

ولولا عَفافي واتِّقاءُ عتابها

تمتعتُ منها بالمَحلِ المُحرَّمِ(٢٦).

ظهرت العفة في شعر عبد الكريم القيسي عندما ترك شيطانه دون طاعة، وعلى الرغم من ان محبوبته بدت له في مظهر مغرٍ، إلا أنه ملك الهوى جمحات قلبه، ليجري على العفاف الذي طبع عليه، فصاحبة الشاعر الصبية المسيحية الشديدة الإغراء التي سلبت لُبّ الشاعر (سَبَتْني بوجهٍ مِثْلَ بدرٍ مُتمّمِ)، تركته حليف همومه التي تبارحه، لكنها باتت منعمة (في فراشٍ تنعُّمِ)، وما أكثر ما متَّعته من لذيذ الوصل، ولكن ما يمنع الاستمرار في التمتع بها، هو عفاف الشاعر الذي وقف سداً منيعاً حال دون ذلك.

المبحث الثاني

العدل

لا شك أن طلب العدل هو من الفطرة الإنسانية التي تميل اليها النفوس بالبداهة، ولا يتوقع غيابُ قيمتها وتقديرها عند النفوس الطيبة، "وإن الغاية من وضع الأحكام وأمر المجتمع بتطبيق ما جاء فيها، هي ضبط ذلك المجتمع ومنع أفراده من تجاوز بعضهم على حقوق البعض الأخر، وسلبهم ما يملكون، وذلك لإشاعة (العدل) ورفع الاعتداء الذي هو (الظلم) وهو نقيض العدل "(٢٧).

ومن أجل تحقيق (العدالة) سُنت الشرائع والاحكام، والعدالة هي المساواة وعدم الانحياز. وقد عَرفه الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، بقوله:" التقسيط اللازم للاستواء واستعمال الأمور في مواضعها، وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها، من غير سرف ولا تقصير، ولا تقدم ولا تأخير "(٢٨). وقال الشريف الجرجاني (ت:٨١٦هـ)، هو " الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط"(٢٩)، وهو " مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل الى الحق"(٣٠)، وقد أكد القران الكريم على هذا الخلق في العديد من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى:{**يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحكُم بَينَ النَّاسِ بِالحَقِ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ أَنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ**}(٣١). وفي السنة النبوية فقد أمر النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالعدل فقال:" **سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل**"(٣٢).

وقد تطرق شعراء مملكة غرناطة الى هذه القيمة الخلقية السامية والتي عبروا فيها عن عدل حكامهم، وأشادوا بذكر دورهم في نصرة المظلوم وإغاثة المستغيث، ومن النصوص الدالة على العدل قول أبي عبد الله بن الحكيم (ت ٧٠٨هـ) (٣٣). مشيداً بعدل ممدوحه السلطان محمد الفقيه أذ قال:

(بحر الرمل)

ملكٌ إن قُلتَ فيهِ مَلَكاً

لم تَكنْ إلا محقّاً في المقال

أيد الإسلام بالعدل فمَا

إنْ تَرى رسماً لأصحابِ الضلال [٣٤].

أوصل الشاعر ممدوحه الى أقصى غايات القيم الخلقية، فهو الذي ايد الإسلام بالعدل قلم يبقَ رسم في عهده لأصحاب الضلال.

وقال ابن الجياب الغرناطي (ت:٧٤٩هـ)، في قصيدة يمدح أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف الثالث ويهنئه بعيد فطر عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، وقد أشاد فيها بعدل هذا السلطان فقال:

سُلطانُ عَدلٍ أشرَقت انوارُهُ

رَحبُ الذّرَاع بكُلّ أمرٍ فاج [٣٥].

حاول ابن الجياب الغرناطي ان يبين عدل الملك يوسف الثالث فهو يرى ان ممدوحه سلطان عدل عَمَّ عدله البرايا، فشعّت انواره حدود مملكته ليملأها عدلاً وقسطاً ليكون ملاذاً وملجأً للناس جميعاً، وهذا العدل يبرز القيمة الخلقية في أسمى درجاتها.

وقد واصل ابن الجياب مدحه للسلطان والذي رأى فيه عدة صفات اتصف بها، وهي صفات تعلي من شأن ممدوحه وترفع من قدره إلا ان الصفة التي هيمنت على تلك الصفات هي العدل إذ قال:

(بحر الطويل)

وأنتَ إمامُ العَدلِ ما عَنْكَ مَعدلٌ

مُصرّفُ حُكم اللهِ ما عنكَ مصرفُ

فقدْ قلّدَ اللهُ الخلافةَ أهلهـا

فهذا إمامُ الفضلِ والعدلِ يُوسُفُ [٣٦].

فالشاعر يضفي المشروعية على حكم الممدوح فجعله (إماماً)، قلّده الله الخلافة، فكان هو أهلاً لها، ليحكم في الناس بما انزل الله تعالى عدلاً وقسطاً، وهذه القيمة الخلقية تعلي من شأن صاحبها لتجعله في مقدمة أهل زمانه فمن حظي بمثل هذا المديح الذي خلدّ ذكرهم حقيقٌ بهذا الوصف الذي اطلقه الشاعر.

قد تغنى ابن جزيّ الكلبي (ت: ٧٥٧هـ)[٣٧]، في مدحه لأبي الحجاج يوسف بعدله فهو منقذ العاني، ومُغني المعتفي، وغوث اللاجي إذ قال:

(بحر الكامل)

وأفاضَ حكم العدل في أيامه

فالحقُّ أبلجُ واضحُ المنهاج

هو منقذُ العاني ومُغنِي المعتفي

ومذلّلُ العاتي وغوثُ اللاجي[٣٨].

فقد جعل الشاعر في هذه الابيات عدل ممدوحه قيمة خلقية انمار بها عمن سواه، وهو بهذا الوصف يعظّم من شأن ممدوحه، ويفضله على من سواه من الممدوحين ثم اخذ يعدد القيم الخلقية المحمودة لممدوحه فهو منقذ العاني ومغني المعتفي، ومذل العاتي وغوث اللاجي، وقد جمع المجد عنده بأشتاته، وهذا كله يعود الى العدل. وهو بذلك يبني لممدوحه موقفاً أخلاقياً عظيماً.

ومن صور الممدوح العادل الشجاع قول إبراهيم بن الحاج النميري (ت: ٧٦٨هـ)، يمدح السلطان يوسف الثالث وقد أشاد بعدله بين رعيته إذ قال:

(بحر البسيط)

يَا خَيْرَ مَلكٍ سَمَا بأرضِ أندَلُسٍ

وَللجهادِ بهَا نَحوَ العُدَاةِ مَشَى

وَأكرَمَ العَادِلِينَ النَّاصرينَ لهَا

نَصراً قُلُوبُ العدىَ بالرُّعبِ منهُ حَشَا

ذُو العَدلِ أذهَبَ عَنَّا الضُّرَّ أجْمَعهُ

فَلَوْ سَرَى عَدلهُ للصِلِّ ما نـهَشا[٣٩].

رأى إبراهيم بن الحاج النميري في ممدوحه بأنه خير العادلين الناصرين للأندلس وهو فاضل الدنيا، وبعدله بين رعيته أذهب الضّر أجمعه، فهو بهذا الوصف يعطي لممدوحه بعداً استمرارياً لهذه القيمة الخلقية التي كان يتحلى بها هذا السلطان.

ومن أمثلة ذلك قول ملك غرناطة يوسف الثالث(ت٨٢٠هـ)، يفخر بعدله ونصرة من يقصده إذ قال:

(بحر السريع)

في عز ملكي أمل الآمِلِ

لقادم نحويَ أو راحلِ

أنا الذي إن لاذ بي خائف

صدعتُ بالحق على الباطلِ[٤٠].

افتخر الملك يوسف الثالث في هذه الابيات بعدله، فالعدل هو الذي يقوم عليه ملكه، ولتأكيد معنى العدل في نفسه نجدهُ يلجأ الى الجانب النفسي لإعلاء القيمة الخلقية للعدل فهو ينصر الضعيف الذي لا يستطيع أن يقف في وجه الخصوم لضعفه وقله حيلته، وبعد ان ينصره لا يمكن لأحد أن يظلمه أو ينتصر عليه، وينصب نفسه مثالا للاعتدال والانصاف وتسكين روعة الخائف بردّه بجميل ما عنده وإغاثته، فهو يصدع بالحق على الباطل، وهذا يزيد من فاعلية القيمة الخلقية للعدل لأنها تتحرك بحافز الرغبة.

ومن ذلك قول ابن فركون(ت:٨٢١ه)، يمدح الملك يوسف الثالث وقد اشادِ بعدله إذ قال:

(بحر الطويل)

فيا ملك الدنيا بعدلك شيدتْ

من الدين أعلامٌ وقامت مصانعُ

مقامك محمودٌ وعدلكَ شامل

وظلك ممدودٌ وجهدُك ذائع

وحزبك منصور وعزُّك قاهرٌ

وجودك مبذولٌ وحلمكَ واسع [٤١].

ذكر الشاعر في هذا النص عن عدل ممدوحه الملك يوسف الثالث، ثم صور ما اتصف به هذا الممدوح من عدل فبعدله شيدتْ أعلام الدين، وقامت المصانعُ، واخذ بعد ذلك يعدد ما كان يتحلى به الممدوح من قيم خلقية والمتمثلة بقوله: (وجودك مبذولٌ وحلمك واسع)فقد جعل الشاعر خلق العدل مدمجاً مع بقية الأخلاق التي تسهم في بناء شخصيته، لتظهر في اجمل صورة خلقية إذ جمع في شخصيته بين خلق العدل، والشجاعة، والجود، وسعة الحلم، وهذه الخصال الخلقية المحمودة هي التي جعلت شخصية ممدوحه متكاملة في منظومها الأخلاقي ، مما ميزه على اقرانه.

الخاتمة:

يستنتج ممّا تقدم أنفاً أن العفة شكلت في نظرة شعراء مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر قيمة خلقية من جهة، وحافزاً اخلاقياً من جهة أخرى، لأن التعفف هو استعلاء للنفس على الرذائل والمساوئ فالعفة هي الاخلاق ذاتها وهي التي ترسم معالم الشخصية في مختلف ابعادها الاجتماعية والأخلاقية، وفي ظل العفة يحيا السلوك القويم وإذا فقدت سادت الدناءة والخسة فهي بمنزلة أعمدة بناء المجتمع فإذا فقدت العفة انهدمت بنى الأخلاق.

كما و تعرضوا الشعراء لهذه القيمة الخلقية السامية، (العدل) وان حديث الشعراء عن العدل وظواهره السلوكية لدى الحكام والأمراء، يعزز حضور القيمة الخلقية في النفوس، فهو يصنع النموذج الأمثل الذي ينبغي ان تكون عليه القيمة الخلقية، والتي عبروا فيها عن عدل حكامهم، واشادوا بذكر دورهم في نصرة المظلوم وإغاثة المستغيث.

الهوامش:

(١) ينظر: قيم الإسلام الخلقية وآثارها، د. عبد الله بن محمد العمرو: ١٦، و: القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع المانع: ٢٤.

(٢) القيم الأخلاقية لرعاية حقوق الإنسان في ضوء السيرة النبوية والمقاصد الشرعية، د. محمد شيخ احمد محمد، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة إفريقيا العالمية السودان، المؤتمر الدولي الأول للسيرة النبوية الشريفة، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م: ٧٦.

(٣) مدى تأثر القيم الأخلاقية بالتغيرات المعاصرة بالمجتمع السعودي ودور الدعوة في المحافظة عليها، حصة عبد الكريم الزيد، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، ع١٧، ج١،يوليو ،سنة ٢٠١٧م:٢٦٧-٢٦٨.

(٤) الأخلاق في الاسلام في ضوء الكتاب والسنة وآثار الصحابة، سعيد بن علي القحطاني: ٧، و: القيم الاخلاقية للإمام علي(عليه السلام،) علي شكر الحسني (بحث)، كلية الآداب، الجامعة العراقية، بغداد: ٩.

(٥) السنن الكبرى، ابو بكر البيهقي: ١٠/ ٣٢٣.

(٦) سورة القلم: الآية: ٤.

(٧) سورة الأحزاب: الآية: ٢١.

(٨) الاخلاق الإسلامية في الشعر الاندلسي عصر ملوك الطوائف: ٦.

(٩) ينظر: أساليب التدريس والتقويم والقيم الأخلاقية في سورة يوسف د. بكر سميح المواجده، البلقاء للبحوث والدراسات، جامعة الزرقاء، الأردن: ٢٠١٤م: ١٦٣.

(١٠) سورة النساء، الآية: ٦.

(١١) المستدرك على الصحيحين، محمد النيسابوري، :٤/ ١٧١.

(١٢) صحيح مسلم، رقم الحديث ٤،٢٧٢١/ ٢٠٨٧.

(١٣) تهذيب الأخلاق: ٢١-٢٢.

(١٤) وينظر: الذريعة الى مكارم الشريعة، الراغب الاصفهاني: ٢٢٤.

(١٥) القيم الأخلاقية والجمالية في شعر ابن خفاجة الأندلسي دراسة تحليلية وصفية، مجدي عبد المعروف حسين أحمد، مجلة العلوم والتقانة، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا: ع١، م١١، ٢٠١٠م: ٢٠٠.

(١٦) ابن هذيل التجيبي الغرناطي: ٢٩٠.

(١٧) الإحاطة: ١٣/٣.

(١٨) سورة النور، الآية: ٣٠

(١٩) سورة غافر، الآية: ١٩.

(٢٠) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢١) أبو حيان الغرناطي: هو محمد بن يوسف بن حيان، أثير الدين، أصله من قبيلة نفرة بالمغرب، ولد ونشأ بغرناطة، ثم رحل الى المشرق واستقر بمصر، كان عالماً باللغة واماماً في النحو والحديث والتفسير والفقه، ولد ديوان شعر كانت وفاته سنة (ت: ٧٦٤هـ). ينظر: نفح الطيب :٢/ ٥٣٥، والوافي بالوفيات: ٣/ ٩٢.

(٢٢) ديوان أبي حيان الغرناطي: تحقيق د. احمد مطلوب، د. خديجة الحديثي: ٦٦.

(٢٣) ديوان ابن زمرك: ١٣٨.

(٢٤) ديوان ابن زمرك: ٣٦٨.

(٢٥) عبد الكريم القيسي: هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي، البسطي ولد في بسطة، شاعر وفقيه، عمل إماماً في مدينة برجة، ثم تولى خطة التوثيق، أسره النصارى في مدينة آبرة مدة، وأحرق حانوته، وعزل عن بعض الخطط، فانعكست هذه الحالة في شعره فلام وعاتب، وذم وشكا، لم تذكر المصادر تاريخ وفاته، له ديوان شعر، ينظر: ديوان عبد الكريم القيسي، تحقيق: جمعه شيخة، مقدمة الديوان: ٧-١٥.

(٢٦) ديوان عبد الكريم القيسي: ٣٦-٣٧.

(٢٧)المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي الطاهر: ١٥٦/١٠.

(٢٨)تهذيب الأخلاق، الجاحظ: ٢٨.

(٢٩) التعريفات، الجرجاني: ١٤٧.

(٣٠) م. ن: ١٤٧.

(٣١) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٣٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: ١٠٣١ / ٧١٥

(٣٣) أبو عبد الله بن الحكيم: هو محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم اللخمي الرندي، وزير اندلسي، ولد برندة وانتقل من رندة الى غرناطة، ولما ولي أبو عبد الله المعروف (بالمخلوع) قلده الوزارة والكتابة، ثم لقبه بذي الوزارتين، واستمر الى ان توفى بغرناطة قتيلاً كانت وفاته سنة (٧٠٨هـ)، ينظر: الاعلام، للزركلي: ٦/ ١٩٢.

(٣٤) نفح الطيب: ٢/ ٦٢٠.

(٣٥) ديوان ابن الجياب الغرناطي: ٥٥-٥٦.

(٣٦) ديوان ابن الحباب الغرناطي: ٢٧٣.

(٣٧) ابن جزيّ الكلبي: من كتاب الدولتين، النصرية في غرناطة، والمرينية في فاس، هو محمد بن محمد أبو عبد الله، من أهل غرناطة وأعيانها، شاعر من كتاب الدواوين السلطانية، ولد بغرناطة وله نظم ونثر استكتبه أبو الحجاج يوسف ثم ضربه

بالسياط من غير ذنب اقترفه، ففارقه وانتقل الى المغرب واقام بفاس، وحظي عند ملكها المتوكل أبي عنان المريني كانت وفاته سنة (٧٥٧هـ)، ينظر: الإحاطة: ٢/ ٢٥٦، وأزهار الرياض: ٣/ ١٨٩، نثير فرائد الجمان: ٢٩٢.

([٣٨]) شعر ابن جزي الكلبيَ: ٣١٦- ٣١٧.

([٣٩]) ديوان إبراهيم ب الحاج النميري: ٢٠١-٢٠٢.

([٤٠]) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ١٠١.

([٤١]) ديوان ابن فركون: ٣٧٧.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ابن هذيل التجيبي الغرناطي حياته وما تبقى من شعره، جمع وصنعة ودراسة، محمد عويد الساير، وعكاب طرموز علي الحياني، مجلة جامعة تكريت للعلوم، مج١٩، ع٧، تموز ٢٠١٢م.
- الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، يوسف شحدة الكحلوت، (د، ط)، (د، م)،٢٠١٠م.
- الأخلاق في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة واثار الصحابة، د. سعيد بن علي القحطاني، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ٢٠١٥م.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، شهاب الدين المقري التلمساني، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م.
- أساليب التدريس والتقويم والقيم الأخلاقية في سورة يوسف د. بكر سميح المواجده، البلقاء للبحوث والدراسات، جامعة الزرقاء، الأردن: ٢٠١٤م
- الاعلام، خير الدين الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،٢٠٠٢م.
- التعريفات، الشريف الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م.
- تهذيب الأخلاق، أبي عثمان الجاحظ، قرأهُ وعلق عليه، أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، ط١، دار الصحابة للتراث، بطنطا،١٩٨٩م.
- ديوان إبراهيم بن الحاج النميري، تقديم وضبط د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، المجمع الثقافي، أبو ظبي،٢٠٠٣م.
- ديوان ابن الجياب، جمع وتحقيق: د. جمعة شيخة، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٦م.
- ديوان ابن زمرك الأندلسي، حققه وقدم له ووضع فهارسه، د. محمد توفيق النّيفر، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،١٩٩٧م.
- ابن فُركون الأندلسي شاعر غرناطة، قاسم القحطاني، ط١، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي ،٢٠٠٩م.
- ديوان أبي حيان الغرناطي، تحقيق، احمد مطلوب، خديجة الحديثي، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٩م.

- ديوان عبد الكريم القيسي، د. محمد ابن شريفة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان: ١٩٨٥م.
- ديوان عبد الكريم القيسي، تحقيق: جمعه شيخة، مقدمة الديوان،ط١، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، لبنان ،١٩٨٥م
- ديوان يوسف الثالث، تحقيق: عبد الله كنون، ط١، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٠٠م.
- الذريعة الى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: د. أبو اليزيد ابو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- السنن الكبرى ، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ٢٠٠٣م.
- شعر أبن جزيّ الكلبي، جمع وتوثيق ودراسة، محمد عبيد السبهاني، مجلة جامعة الانبار، كلية التربية للعلوم الإنسانية، مج٩، ع٢٢، كانون الثاني ٢٠١٣.
- صحيح مسلم، الامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، وقف على طبعة، وتحقيق نصوصه، وتصحيحه وترقيمه، وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه، محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.
- القيم الأخلاقية لرعاية حقوق الإنسان في ضوء السيرة النبوية والمقاصد الشرعية، د. محمد شيخ احمد محمد، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة إفريقيا العالمية السودان، المؤتمر الدولي الأول للسيرة النبوية الشريفة، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م
- القيم الاخلاقية للإمام علي(عليه السلام) علي شكر الحسني (بحث)، كلية الآداب، الجامعة العراقية، بغداد،(د.ت).
- القيم الأخلاقية والجمالية في شعر ابن خفاجة الأندلسي دراسة تحليلية وصفية، مجدي عبد المعروف حسين أحمد، مجلة العلوم والتقانة، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا: ع١، م١١، ٢٠١٠م.
- قيم الإسلام الخلقية وآثارها، عبد الله بن محمد العمرو، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الإسلامية، كلية الشريعة، الرياض، ٢٠٠٨م.
- القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنه، د. مانع بن محمد بن علي المانع، ط١، دار الفضيلة، الرياض، السعودية،٢٠٠٥م.
- مدى تأثر القيم الأخلاقية بالتغيرات المعاصرة بالمجتمع السعودي ودور الدعوة في المحافظة عليها، حصة عبد الكريم الزيد، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، ع١٧، ج١،يوليو ،سنة ٢٠١٧م .
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٩٠م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط٤، دار الساقي، بيروت، لبنان،٢٠٠١م.
- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، الأمير إسماعيل بن يوسف بن الأحمر، دراسة وتحقيق، د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين احمد بن محمد المقرّي التلمساني، تحقيق: احسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.

❖ الـوافي بالوفيـات، صـلاح الـدين الصـفدي، تحقيـق: أحمـد الأرنـاؤوط، وتركـي مصـطفى، دار احياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.